**ابن رشد:**

أوغلت في رحلتي اللولبية أبحث عن البياض في الملموس والمحسوس، أوغلت في مسافاتي فوجدته مدسوسا بين ثنايا الحقائق المجردة مثل سيف مجرد على رقاب الأكاذيب.

إن الحقائق أبدا لا تغيب، فدائما بعد طول انتظار تشرق الشمس ويهبط على الأرض السلام، وفي لحظة سلام تقفز الحقيقة مثل حمامة بيضاء. توقفت قليلا هناك: في الأندلس التي كانت من الأماكن التي أشرقت بفكر الأجداد، وقفتُ لأقرأ لحظات في فكر شعاعي اللون، كان ضد الاستبداد وضد الاستعباد يقول فيلسوف قرطبة "ابن رشد" في كتابه "الضروري في السياسة" عن النساء: "وأما اشتراكهن في صناعة الحرب وغيرها فذلك بين من حالة ساكني البراري وأهل الثغور، ومثل هذا ما جُبلت عليه بعض النساء من الذكاء ومن الاستعداد فلا يمتنع أن يكون لذلك بينهن حكيمات أو صاحبات رئاسة[1].

هذا الرجل لم يتوقف عند ذلك فقط بل كان ينظر إلى المرأة نظرة أكثر واقعية، نظرة مقدرة لقدراتها، يقول: "إنه لا يمكن للمجتمع الإسلامي أن يرقى إلا إذا أُطلق جناحا المرأة وفُكت القيود التي تضغط على حريتها، والتي أتلفت مواهبها العظيمة، وحدت من قدرتها العقلية التي وهبها الله تعالى إياها"[2].

(1) الضروري في السياسة ابن رشد.
(2) التفكير الفلسفي الإسلامي صفحة: 252 إنصاف رمضان.

ابن رشد لم يكن ميكيافللي التوجه أو الميول وهذا ربما كان سببا من أسباب نكبته فهو يعتبر العدل ركناً أساسياً في السلطة والظلم هلاك ودمار، ويعتبر أن العدل هو ثمرة المعرفة، وأن الظلم ثمرة الجهل، ويعرض في كتابه الضروري في السياسة أن المستبد يتولى السلطة ولكنه يولد الغضب: "لذلك تسعى الجماعة الغاضبة إلى إخراجه -المستبد- من مدينتهم فيضطر هو إلى استعبادهم والاستيلاء على عتادهم وأسلحتهم فيصير حال الجماعة معه كما يقول المثل (كالمستجير من الرمضاء بالنار) وذلك أن الجماعة إنما فرت من الاستعباد بتسليمها الرئاسة إليه فإذا هي تقع باستعباد أكثر قسوة، وهذه الأعمال هي جميعاً من أعمال رئاسة وحدانية التسلط، وهي شيء بين في أهل زماننا هذا ليس بالقول فحسب بل بالحس والمشاهدة" وبالمشاهدة نرى من ظلم واستبد ونرى من استُبعد قبل عصر ابن رشد وبعده وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها[1].

(1) هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد المولود في قرطبة، كان ابن رشد فيلسوفاً كثير المطالعة والتأليف، وهو فيلسوف أجاد فهم أرسطو، قام بتحليل وشرح كتبه وقد كان قاضي قضاة قرطبة، يقال إن لنكبته أكثر من سبب منها: أن ابن رشد كان على علاقة طيبة بأخي المنصور أبو يوسف الخليفة الذي كان يخشى أن يجد في أخيه منافساً على العرش، مخاطبته للخليفة بدون تكلف، تلقيب ابن رشد للخليفة بملك البربر وهذه التهمة نفاها وقال: إن النساخ هم الذين حرفوها وقد كانت «ملك البرّين»، المنافسة القائمة بين الفلاسفة وعلماء الدين التي بلغت أوجها في الأندلس الذين كانوا يرمون على الفلسفة تهمة الكفر والزندقة وتلك تهمة أوغروا بها صدر الخليفة وهيجوا عليه العامة وهذا الذي دعا الخليفة الذي كان بحاجة إلى رضا الشعب أن يستغله في إرضاء شعبه لمؤازرته في حربه مع ألفونسو التاسع ملك قشتالة، لقد أوذي هذا العالم في ذاته فنفي إلى قرية يهودية تقع جنوب قرطبة بخمسين كيلو مترا وأمروا بإحراق كتبه!!.

شغفت بالاقتدار الذي يتحدث عن نفسه وبحثت عنه لا أمل فوجدته في كثير من زوايا التاريخ تسرق منه التفاصيل كثيرا كي لا تبوح بينابيع قد تغسل تراكمات تسد مسامات الحقائق ولكن في لحظة من الزمن تنبثق الينابيع جارفة الصخور منادية للبذور لمعانقة السماء.

**شغف:**

شغف جارية أتت من الصفوف الخلفية لتدفع أبنها الصغير الذي لم يكن له من العمر سوى 13 سنة للخلافة، إنها أم الخليفة المقتدر، وحينما تم لها ذلك ورأت أن هناك من يعارض، بحجة صغر الخليفة المقتدر، انقضت مثل الصقر على الفراخ والفرخ في هذه الحالة كان القاضي أحمد بن يعقوب الذي لم يعترف بالمقتدر وأصر بصفته السلطة الدينية على أن الطفل ليس مؤهلا لأن يصبح خليفة، فصفته بدون رحمة مثلها مثل ملك يخشى على ملكه[1] لقد أدارت أم المقتدر شؤون الدولة باقتدار وحنكة فقد عينت من وراء الستار من رأت فيه الحنكة بغض النظر عن جنسه أو لونه، لقد ولت هذه المرأة امرأة أخرى اسمها تومال.

**تومال:**

تومال امرأة أصبحت مسؤولة عن المظالم في عهد المقتدر وهو منصب يعادل الآن وزارة العدل، كانت هذه المرأة المعينة من قبل

(1) السلطانات المنسيات نساء رئيسات دولة في الإسلام، فاطمة المرنيسي صفحة: 76.

امرأة أخرى ترأس القضاة الذين تذمروا واستنكروا في محاولة لرفض وجود امرأة ترأسهم، ولكن رغم المقاومة الظاهرة تذكروا ما آل إليه مصير القاضي أحمد بن يعقوب، عند ذاك تأكدوا أن المرأة ليس لديها أي نية للتخلي عن قرارها الذي آمنت به واتخذته عن قناعة، لقد آمنت المرأة الذكية أن المرأة هي أقرب للعدل، ففعلت الذي هو أقرب لرضا شعبها، وهذا ما ثبت فعلا، لا توقعا، فقد أنهت الرشوة المتفشية وخفضت مصاريف العدالة، ولهذا لم يعد الناس يدفعون إلا ثمن الورق الذي يستخدمونه في قضاياهم، لم يعد الفقراء يدفعون لصغار الموظفين الذين ينتمون لكبار موظفي الدولة. وهكذا أيها التاريخ، يكبر الكبار حتى ولو كانوا جواري[1].

**المرأة الحديدية:**

اعلم أن هناك من قفزت إلى الحكم، وكانت مع القساة والطغاة تفعل كما يفعلون وتقول مثلما يقولون، تقفز إلى تلك الساحة التي أتمنى دائما أن لا تكبر، مارجريت تاتشر أول رئيسة للوزراء البريطانيين تلك المرأة ابنة البقال، الحديدية التي عدت وهذه حقيقة لا جدال فيها من أنجح الوزراءالبريطانيين بعد نجاحها في ترؤس حزب المحافظين في عام 1975 ثم تغلبها على السياسي البارع جيمس كالاهان رئيس حزب العمال متخطية بذلك زعيم حزبها السابق المعروف بقدرته وبراعته على المناورة الحزبية إدوارد هيث، هذه المرأة التي وصفتها الصحافة البريطانية بـ "أقل نساء

(1) السلطانات المنسيات لفاطمة المرنيسي صفحة: 75.

بريطانيا شعبية" كانت امرأة قوية ولكنها أيضا كانت من الزعماء القساة، هذه المرأة توجها، حزبها المحافظ، في مؤتمره الذي عقده في 1975 في بلاكبول: إمبراطورة على الحزب إلى أن أسقطت بسبب أزمة حليب المدارس والحصص التي كانت تمنح للطلبة مجانا ومنعتها، لقد كانت هذه المرأة ضد التوسع في المنح الدراسية للطلبة في الجامعات وضد العواطف التي يقولون إن المرأة لا تستطيع الفكاك منها!!

هذه المرأة فازت بثلاث مرات في الانتخابات وكانت تتسم بالفردية أثناء حكمها الذي استمر أحد عشر عاماً تخللته حرب الفوكلاند وحرب الخليج الأولى التي كان لها دور نشط فيها.

وبعد سقوطها في الانتخابات التي ما كانت تخطر لها على بال وهي التي أنعمت عليها الملكة اليزابث الثانية بعد ذلك بلقب بارونة هل نقول أهلا بالعواطف التي تمنح الحليب؟

نعم نقولها، فالسياسة بدون خبز ولا حليب تصبح سجنا كئيبا، لقد سقطت المرأة التي لم تهتم بالعواطف لأنها أسقطت ركنا من أركان السياسة فالعواطف ركن من أركان التوازن، فإذا سقط هذا الركن أصبح البنيان معرضا للسقوط وإن كان حديدا فهو يصدأ، لقد بقي الضلع الحديدي في العراء فسقط، لقد اختار الشعب أن يزيح الحديد عن كاهله لأن الحديد لا يحكم وإن كان على صورة الأم[1].

(1) المرأة بين الدين والمجتمع، دكتور زيدان عبد الباقي، صفحة: 480.

## اليزابث بنت هنري الثامن:

بلاد الإنجليز التي عرفت ببرودة المشاعر سبق ورزئت أو رزقت، يختلف المنظر باختلاف الزاوية التي ننظر منها إليها، بامرأة أخرى اتسمت بالقسوة والصلابة الصخرية التي لا تفتتها العواطف الجياشة:

إنها: الملكة إليزابث ابنة هنري الثامن[1] ولدت سنة 1533م وتوفيت 1603م.

لقد اعتنقت إليزابث المذهب البروستانتي الذي دافعت عنه بشراسة منقطعة النظير بل إنها أبطلت الصلوات الكاثوليكية من كنيستها التي اتبعتها، ولقبت والية على الكنيسة التي أصبحت بروتستانتية، هذه الملكة سجنت ابنة عمها ماري ستيوارت ملكة سكوتلاندا ثماني عشرة سنة ولم تفلح عاطفة القرابة في إذابة جبال الجليد التي ظلت مثل سكاكين الفولاذ التي ظلت لا تصدأ أبدا، ولم تكتف تلك المرأة بذلك بل حرضت على عقابها والحكم عليها من الكنيسة في سكوتلاندا والتي سيطر فيها الحزب البروتستانتي، لقد اضطرت ماري ستيوارت إلى اللجوء لابنة العم، ولكن هذه لم تكن عند حسن الظن، بل إنها رغم توسلات الملكة السجينة أصرت على تصفيتها بعد تلك السنين، أصرت بعاطفة لا تلين!!

(1) ابنة بائع الخضار، المرأة الحديدية، جون كامبل.

هل نعود إلى تعليمات نيقولا ميكيافللي؟

نعم نعود، لقد عملت هذه الملكة بتعليماته، لقد عملت هذه المرأة الحديدية على تصفية الخصوم ثلاثين سنة دون أن تخضع لخفقات قلب، أو تأنيب ضمير، لقد جمعت حولها الأتباع الذين رأت في وجودهم فائدة لها إلى حين!!

هذه الملكة لم تكتف بخنق عشرات من فلاحي يوركشاير بموجب النظام الحربي الذي لجأت له، ولكنها خنقت حتى الحب الذي لم يضف لها مصلحة!!

في عصر إليزابث ابنة هنري الثامن الذي امتلأ بالحروب والمؤامرات، بدأ عصر "بريطانيا العظمى"!

لقد أعلنت اليزابث ابنة هنري الثامن لسفير "هنري الرابع" ملك فرنسا، أن ملك اسكوتلاندا جيمس الاول سيخلفها في المُلك ليصبح ملكا لبريطانيا العظمى بعد انضمام ايرلاندا.

إذن هي أول من وحد تلك النواحي المتقاتلة، لقد استخدمت كل الوسائل لكي تصل إلى هدفها الذي وصلت إليه رغم صرخات ماري ستيوارت السجينة التي كتبت لها تقول: "هل السجون والقبور لمثل ماري ستيوارت حتى يحكم بها مجلسك؟

وتساءلت: وعلى أي ذنب بنوا حكمهم ووافقتهم عليه؟

هل أساءك أن معتقدي يخالف معتقدك؟

إني لست ابنة كنيستك!! أوتعدين هذا ذنباً سياسياً حتى انقضضت علي من أجله منتقمة متشفية حين سلمت نفسي إليك.

وتستمر في رسالتها الطويلة إلى أن تقول: إن اليزابث لم تعرف بعد أي عظمة ضمها صدر ماري ستيوارت، سأتحمل الظلم بنفس رضية دون أن أتفوه بكلمة واحدة مكتفية بأن لي ربا ينصف المظلوم" وأوصتها بالعدل والسلام الذي لم يستتب إلا على يدي ابنها جيمس الأول، أعني ابن ماري ستيوارت الذي توحدت تحت يديه بصورة نهائية مملكتا سكوتلاندا وإنجلترا لتصبح بريطانيا العظمى[1].

(هنري الثامن هذا كان قد أصدر قانونا يحرم على المرأة الإنجليزية قراءة[2] "الكتاب المقدس")!!

مقطع عرضي "لهذا الملك مع كنيسته التي يرأسها وأسرته ومجتمعه الذي يعيش فيه مواقف غاية في القسوة والرعونة، فقد عزل زوجته الملكة كاترين وتزوج آن بولين التي طالها أكثر، فقد اتهمها بالخيانة وحكم عليها بالإعدام، أيضاً يقول ول ديورانت إن الأصل الداخلي لفساده هو ما تعرضت له غرادته من إحباط متكرر في الحب والأبوة، فقد خاب أمله طويلا في الحصول على ابن وصد بطريقة خادعة في طلبه المعقول في إعلان بطلان زواجه الأول[3].

(1) الدر المنثور في طبقات ربات الخدور من تأليف زينب بنت علي بن حسين فواز العاملي الصفحات 79 و751.
(2) الأمير صفحة 149.
(3) قصة الحضارة المجلد الثالث عشر صفحة: 144.

هنري الثامن في نظرته هذه ليس بدعا في نظرته للمرأة، ولكن هذا الرجل قد يكون مؤمنا بأقوال رسولهم البتولي[1] "بولس" في رسالته الأولى إلى أهل كورنتسفي الإصحاح السابع حيث قال: "حسن للرجل أن لا يمس امرأة" و"أريد أن يكون جميع الناس كما أنا "ويقول بولس أيضا لرجل منفصل عن امرأته " أنت منفصل عن امرأة، فلا تطلب امرأة"!!

سبحان الله، هم يرفضون الفطرة السوية!!

هذه الفطرة السوية كيف ترفض، كيف؟

تأتي هذه الفطرة وكلنا نرغب بها، نحبها، إنسان يختلف لا اعتراض على الاختلاف، ولكن الاعتراض لماذا هذه الكراهية للمرأة؟

المرأة البلسم التي جعلها الله سكنا وحضنا، على أية حال سوف تظل المرأة الأم والحضن الذي يحتوي حتى العصاة إلى أن يرعووا.. ولن يرعووا إلا بسلطان وسلطان العلم والصبر أقوى، ونعود إلى القوانين في الشرائع التي يضعونها، قوانين بريطانيا "العظمى" هذه القوانين تجعلني دائما لا أستطيع أن أكظم الغيظ الذي أمرني ربي الكريم أن "أكظمه"، فليعفُ عني ربي وليرحمني وليرحم عباده الفلسطينيين الذين وعد البريطاني بلفور بمنح وطنهم للغير، وأصدر بذلك قانونا يمنح بموجبه وطنهم لليهود الذين كانوا يعيشون في أنحاء العالم!

(1) البتولية تعني الامتناع عن الزواج.

ويا لها من رجولة من بلفور!! هل يغتاظ الرجال مثلي؟!!

**مقارنة:**

للمرأة حظ في الظلم كما رأينا ولا مجال لإنكاره، فقد خلق الإنسان ظلوما جهولا، إلا من رحم ربي سبحانه ذو الجلال والرحمة ولكن ظل الرجل دائما يتفوق عليها في الظلم، ربما لميل المرأة نحو عاطفة الأمومة وربما بحكم وجوده في الحكم أكثر: أليس هو الزاعم بأنه فاق المرأة عبر القرون؟

في كل الأحوال نبارك له السبق في الحكم وفي طوله أيضاً وإن كنا نذكره بأنه: قد أتيح له في الحقيقة التعليم أسبق، وأتيح له المجال أكثر في المدارس وفي الجامعات وفي الطرقات التي لم يغضوا الطرف بها عن أي سقطة، ولو في حفرة هم حفروها لها مع سبق الإصرار والترصد للغزالة التي يريدونها غزالة وحسب.

أنا هنا، وأنا أظهرُ، ما للمرأة وما للرجل من صفات التقارب في بعض الأعمال السيئة والحسنة لا أتفق مع من يقولون إننا لا نولد بنات أو صبيان وإنما هم يجعلون منا هكذا، أبدا، أبدا، أنا لا أتفق، نحن نولد بنات، لنا خصائص جميلة لا نخجل منها بل نفخر بها، لنا عاطفة الأمومة، ولنا جمال الشكل، ولنا رقة الطبع، ولنا قوة التحمل، نحن من يتحمل الحمل والأمانة، الجنين أمانة في أحشائنا، نحن من يتحمل الولادة ونحن من تحمل الألم، ونحن من يتحمل العمل بدون ضجيج ونقول عندما تشتد الكروب: إن الله

سيكون معنا ونتساءل دائماً: لماذا يكون علينا دائماً أن نفرط بما هو لنا؟!

لنا حقوق شرعها الله كثيرة وطيبة، ومطلوب منا أن ننساها!!

وهنا لا ننسى أن التاريخ لا يشفع للمفرطين، فرطت المرأة في حقها مثلما فرط الرجل في حق أمته، فكانت الهزائم، والهزيمة النفسية أدهى وأمر، هزمت القبيلة في بعض الحروب فعاد رجالها، إلى من؟

لقد عادوا إلى حضن الأمهات وإلى الزوجات ولأنهم مهزومون أولئك الرجال، فلا بد أن يكون هناك من يدفع الثمن، إنها الزوجة والأم، يمارس عليها الانتقام أو يجرب عليها القوة التي يشتهيها ولا يستطيع ممارستها على غيرها، ولأنها تعلم أنه مهزوم مأزوم فلا بد من التحمل!.

تحملت المرأة كثيراً من العنت والتهميش والتهويش ولكنها صبرت وظلت في صحراء العطش مثل شجرة الصبار تروي من يضل الطريق بأجزائها الخضراء.

بعض النساء يهربن من هذا المصير لأنهن لا يعشقن أن يصبحن شجرة صبار فيصبحن حشائش تدوسها الأقدام!!

**عودة:**

بعدنا عن الشرق وهو العريق، أليس كذلك؟

لا بأس، نعود، نحن كنا من يعاني العنت، ويا طول المعاناة ويا لنهايتها التي لم تأتِ، حتى على الرغم من وجود قطرات من مطر تهبط هناك وبحيرات متناهية في الصغر تتكون هنا، "المرأة واللغة" هذا الكتاب تكلم عن استبعاد النساء والخوف منهن لغويا، لقد سرقوا منها حتى تاء التأنيث إذا أرادت الدخول في مملكة الفصاحة!!

إنها زوج فلان أو حرمه، في الشرق وفي الغرب لا تكون زوجة إلا إذا تنازلت عن اسمها الأصلي، إنها مس جورج أو مس بوش!

يقول ذلك الكتاب: "إن الحالة العربية حالة فصاحة فحسب أما الحالة الغربية فهي حالة إلغاء تام من جهة وإدماج تام من جهة ثانية وفيها يكون التذكير في المضمر وفي المعلن معا.

وفي اللغة الإنجليزية ليس للمرأة من وجود إلا داخل مصطلح الفحولة ولننظر في هذه الكلمات:

Man
- wo man
- hu man
- Man kind

حيث تكون المرأة مجرد إضافة لفظية إلى الرجل إذ إننا لو حذفنا كلمة رجل (man) لضاعت وسائل المرأة من الوجود في اللغة وأيضا في البشرية وأيضا في الإنسان"!

لعل أخانا من جنوب الأرض الذي تكرم على المرأة بإضافتها إلى الطفل!.

أقول لعله لم يقرأ ذلك الكتاب الذي ذكرناه آنفا وذكر فيه مؤلفه قصة كتاب خير الدين نعمان أبي الثناء الذي كان يخشى تعليم المرأة حتى لا يهتز عرش الفحولة، لقد أورد ذلك الكتاب أمثلة متناهية في الشفافية، ولكن هيهات لمن لا يريد أن يرى!

أيريد أن يسمع ذلك الأخ العزيز من جنوب الأرض مصادر أخرى لا يأتيها الشك من بين يديها ولا من خلفها؟

هنا سندله على القرآن، هذا الرجل الشقيق الذي أتمنى أن يكون رفيقا مع أي امرأة، لو عاد هذا الرجل إلى القرآن وإلى سورة النمل التي قد يسمعها خمس مرات في صلاته لوجد العجب العجاب، ليته يتذكر، ليته يعود ليسمع شهادة من الله، نور السماوات والأرض، إنه لو يعود لسمع ورأى بأن المرأة مارست السياسة برجاحة عقل وذكاء، إنه لو عاد لرآها تضع السالب والموجب ثم تختار الأنسب إنها الواقعية الملموسة بالحواس الشديدة الحساسية[1].

## بلقيس يا حلم الليالي:

إنها ملكة سبأ "قيل إن اسمها بلقيس وهذا الاسم لم يورده القرآن، ولكن يعنينا أنها امرأة وجدت: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾.

(1) المرأة واللغة للدكتور عبد الله الغذامي صفحة: 22.

هذه الشهادة الكريمة نزلت قبل ألف وأربعمائة وأربعة وعشرين عاماً.

قد أتاها خطاب كريم من نبي الله سليمان ﴿أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾[1] هي لا تعلم من هو سليمان ومدى قوته، ولكنها الحكمة والسياسة تتجلى في ملكة سبأ ولنسمها بلقيس كما هو وارد في كثير من القصص عن ملكة سبأ، هذه المرأة التي أحيطت برجال يريدون أن يظهروا قوتهم أمامها ﴿قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُوْلُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾[2] هل اغترت بالقوة؟

إن الأتباع قد أظهروا لها قوة بأسهم والاعتداد بأنفسهم، هؤلاء الأتباع لم يكترثوا بقوة لم يعلموها، هؤلاء الأتباع لم يروا ما خلف تلك الرسالة، هي رأت، المرأة الحكيمة رأت أن من الحكمة معرفة من ستقابل، وفي المواقف الصعبة تظهر الحكمة من عدميتها وقد كانت المرأة الملكة امرأة حكيمة، ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾[3].

أرأيتم الحصافة؟

إنها امرأة أنثى، تصرفت بمهارة وحنكة وجنبت مملكتها الحرب، لقد أرادت أن ترسل بالون اختبار، ولتنظر ماذا يفعلون مع هذا الاختبار؟

(1) سورة النمل الآية: 31.
(2) سورة النمل الآية: 33.
(3) سورة النمل الآية: 34.

إنها لم تستفز القوة التي أتت مهددة، وهي لا تعلم عنها شيئاً.

فماذا فعلت؟

﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾[1].

أرأيتم ذكاء الأنوثة الذي تجلى في موقف يضيع فيه الكثير؟

نعم لقد اختطف العرش بواسطة القوة الرهيبة التي لا مجال للوقوف أمامها، ولكنها قد ربحت نفسها، أسلمت لله وجنبت قريتها الفساد وجنبت كذلك أن يصبح أهلها أذلة. ﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾[2] الآية.

إنها امرأة حذقت السياسة، فلم تشأ أن تعرض أهلها أو أهل قريتها للمجهول، بل حسبت الخسائر فوجدت أن الخسارة التي يمكن أن تتعرض لها شخصيا أقل من تعريض أهل الوطن جميعا للخسارة، أرأيت أيها الرجل كيف تعطي المرأة من ذاتها؟.

**أسماء:**

كانت الملكة أسماء الأكثر شهرة بين نساء زمانها وبين الحكام، كانت كريمة، وشاعرة تنظم الشعر بنفسها، ولقد كانت مع زوجها يكونان حكومة وحدة وطنية بالتعاون والتفاهم، ظل هذا الأمر حتى جاءت لحظة كالحة السواد بدلا عن عيد حج كانا ينتظرانه وهما

(1) سورة النمل الآية: 35
(2) سورة النمل الآية: 34

في طريقهما إلى مكة المكرمة، فعندما توقفت المراكب ليلا وأقيمت الخيام الملكية، تفرغت أسماء لواجباتها بين جواريها وتفرغ زوجها علي الصليحي، لحاشيته كما جرت المراسيم، "هنا ظهر حاكم زبيد الحبشي برجاله السبعين الذين وزعهم على نقاط استراتيجية ليضرب بسفه رقبة علي وكل رجاله المهمين ويحتفظ بالملكة أسماء أسيرة لديه، ثم يلتفت الحبشي سعيد إلى جنود الصليحي ليضمهم إليه باعتبارهم أحباش"[1].

أسماء التي وضعت في مخبأ سري لم يتركها وحيدة فقد وضع أمامها رأس زوجها الحبيب على عامود لتراه كلما تحركت..

بقيت أسماء سنة كاملة وهي تحاول أن تخبر ابنها أنها هناك..

واستطاعت وانتشر الخبر في صنعاء وهنا تحرك الشعب لإنقاذ الملكة والكرامة، ثلاثة آلاف فارس اصطفوا خلف ابنها المكرم والغضب يثور مثل مدافع الآر بي جي، ونجح ثلاثة آلاف من المخلصين في هزيمة عشرين ألف حبشي كانوا يدافعون عن زبيد في خلال بضع ساعات، وتقدم المكرم يركض في متاهات السجن يبحث عن أمه الملكة الحبيبة، ركض في كل الاتجاهات حتى قادته خطواته إلى المكان السري الذي وضعت فيه، هنا تقدم لها بخوذة وقناع الحرب، ووقف أمامها كأنه في الحلم، سألته: من أنت؟

قال لها: أنا أحمد بن علي، قالت في ريبة: إن هذا الاسم يحمله كثير من العرب، هنا رفع عن وجهه القناع فحيته بتحية

(1) السلطانات المنسيات لفاطمة المرنيسي صفحة: 242.

الملك، هنا لم تعد قدماه تحملانه فقد استوعب موت أبيه وتحرير أمه الحبيبة، إنها عوامل تهد الجبال فكيف بابن رأى أمه تحييه بتحية الملوك في غياهب السجون؟[1].

عادت الأم الملكة إلى صنعاء تحمل ابنها الحبيب المكرم الشجاع نصف مشلول، لا لم تضع المملكة، فقد تحملت الأم الشجاعة شؤون الملك وهيأت أروى ابنة عم المكرم لمساعدة زوجها، لقد كانت السلطة شأن الزوجين وليست امتيازا لأحدهما، إنه الاتحاد الذي ينتج القوة.

**أروى:**

وهنا نعود إلى أروى بنت أحمد الصليحي التي ولدت في خراز باليمن، ونشأت تحت رعاية أسماء بنت شهاب أم المكرَّم الصليحي أحمد بن علي، وهي ملكة عربية، تزوجها ابن عمها المكرم وعمرها سبع عشرة سنة وذلك عام **461** من الهجرة وكان زواجها رمزاً للأبهة والابتهاج، وكان مهرها إمارة عدن[2]، وأخذت منذ ذلك الحين تشرف على إدارتها وتسمي حكامها وتحصل على الضرائب منها، وعندما أصيب زوجها المكرم بمرض أعجزه عن أداء مهام الحكم كانت تملك الخبرة والقوة، ومن أجل ذلك خولها ذلك الزوج المحب الذي تربت معه تحت سلطة أمه الملكة أسماء، سلطاته والتي أدارتها باقتدار وحكمة، كانت هذه الملكة تتحجب خلال جلسات

(1) السلطانات المنسيات لفاطمة المرنيسي صفحة: 243.
(2) السلطانات المنسيات لفاطمة المرنيسي صفحة: 244.

العمل، فهي تكلم الوزراء ورجال الدولة من وراء حجابها الذي التزمته، فهي شابة جميلة وزوجها معاق، وهكذا نذرت نفسها للعمل وللإخلاص لزوج محب، إلى أن مات المكرم، لكن الانتقام ممن كان سبب مأساة العائلة الصليحية لم يمت، أروى لم تنسَ سعيد بن نجاح قاتل عمها الذي لم يزل حيا، ولبلوغ غايتها، قررت أروى أن تنقل عاصمتها من صنعاء إلى جبالة، وهي مدينة صغيرة محصنة وملتصقة بالجبال، وبدأت في تضييق الشبكة حول سعيد بن نجاح بالإكثار من التحالفات والمفاوضات وبعد سنة أي في عام 1088م سحقت جيوشها سعيد بن نجاح في ضواحي جبالة، ولم يكن ذلك بسبب تفوقها العسكري وإنما بالتفوق العقلي، فقد أغرت سعيداً بمهاجمتها بجعله يعتقد أن كل حلفائها كانوا على وشك التخلي عنها، لقد طلبت من حلفائها أن يذهبوا إلى ابن نجاح والإيحاء له بأنه في حالة مهاجمته لجبالة فإنهم لن يأتوا لمساعدتها، ووقع أبن نجاح في الفخ، وقتل سعيد، واقتيدت أم المعارك أسيرة أمام أروى عندها أمرت أروى بقطع رأس سعيد، وغرسه على عامود أمام حجرة زوجته الأسيرة تماما كما حدث لعمها وزوجة عمها ومربيتها[1]. استمرت أروى تدير الحكم بمساعدة الوزراء والقواد المخلصين ورضا شعبها الذي أحبها ودعا لها في المساجد بعد خطبة الجمعة، وذلك بعد الدعاء للمستنصر الخليفة الفاطمي الذي كان راضيا عنها برضا شعبها، وكان الخطيب يختم بهذا

(1) الأعلام للزركلي والسلطانات المنسيات لفاطمة المرنيسي صفحة 245 ـ 246.

الدعاء: اللهم أدِم أيام الحرة الكاملة، السيدة، كافلة المؤمنين إلخ.. هذه المرأة السياسية الحكيمة استمرت تدير البلاد والعباد أربعين سنة بحجابها الذي لم تتخلّ عنه ولم يعقها، وقال عنها الزركلي في كتابه الأعلام: (أروى ملكة كفؤة إدارية لا مثيل لها) قبل أن نرحل عن أرض اليمن هنا سوف نورد حدثاً غريباً عن هذه المرأة: قيل: إن أروى تزوجت ابن عم زوجها الداعية سبأ بناء على ضغوط مورست عليها من ابن العم، وبعد تمام عقد النكاح غادر سبأ قلعة الأشياخ حيث كان يعيش ليصل إلى جبالة حيث تسكن العروس أروى، ودخل إلى قصر دار العز الذي كان قد بناه لها المكرم وَوُجه إلى البهو التي ستنضم إليه زوجته فيه، وذهبت أروى للانضمام إليه، ولكنه لم يستطع التعرف عليها لأنها تخفت بملابس جارية، وقامت بخدمته طوال الليل دون أن يمنحها أية نظرة لاقتناعه أن المرأة المنهمكة بالعمل حوله لم تكن إلا جارية تافهة، وظل مستغرقاً في انتظار الملكة، وطلع الفجر ولم تأت الملكة، ولم يكن هناك إلا الجارية المخلصة في خدمته، عندئذ ترك القصر وعاد إلى منزله دون أن يعرف أن الجارية التي كانت أمامه لم تكن إلا الملكة شخصيا"[1].

توفيت هذه المرأة الملكة وعمرها 86 سنة وقد لقبت ببلقيس الصغرى، الملكة أروى استمرت تحكم اليمن بعد وفاة زوجها عشرين عاماً، وظل الحب لها من شعبها، وهي التي لم تقرأ تعليمات نيقولا مكيافللي في الفصل الثامن من كتابه الأمير: إن من يرد أن يعيش

(1) السلطانات المنسيات لفاطمة المرنيسي.

بأمـان واطمـئنان سنوات طوالاً في الحكم، يجب عليـه أن يرتكب الأعمال الفظيعة من خيانات، وخداع، وأعمال سيئة في أول حكمه، حتى يستقر له الحكم ثم في وسعه أن يصلح أوضاعه مع الله ومع الإنسان!!

لا بارك الله فيك يا (نيقولا) ورحمك الله يا أروى، طال الزمان ولكن ظللت تحوزين على رضا شعبك، وظلت ذكراك جميلة مثل اللآلئ المضيئة تطوق أعناق الحقيقة "رغم أنف برنارد لويس الذي قال إنه لم يعلم أن هناك ملكة عربية[1]" هذه السيدة الحكيمة ضاع الحكم بعدها، لأن الذكور الذين أتوا بعدها، لم يملأوا الفراغ الذي تركته.

## الزباء التي جدعوا أنوفهم كي يهزموها:

مازلت في أرضي وأجوائي العربية الدافئة، وهنا نقف بحب في ربوع الزباء بنت عمرو بن الضرب بن حسان بن أذينة السميدع، أبوها عربي وأمها تقول إنها من ذرية الملكة كليوبترا "يقال إنها ادعت ذلك للمطالبة بحقها في حكم مصر"، امرأة أشبه بالأساطير، عربية أصيلة ذات شخصية أخاذة، تتحلى بقوة الشخصية وبتربية شاسعة في البذخ، لم تكن تجهل اللاتينية، وكانت تجيد اليونانية

(1) برنارد لويس مؤرخ يدعي الموضوعية، ولكنه في الحقيقة يعمى عن الحقيقة إذا كان الأمر يخص الإسلام والمسلمين إذ يقول إنه ليس هناك ملكات في التاريخ الإسلامي، فالملكات تخص الأوربيات والبيزنطيات، هذا الرجل أصبح هو المعلم الأساس للرئيس الأمريكي بوش فيما يخص الشؤون والحضارة الإسلامية!

والآرامية تماما مثل إجادتها للغتها العربية، كانت الزباء أو زنوبيا كما لقبها الرومان مطلعة على التاريخ وكثيرا من العلوم ولقد كتبت تاريخ المشرق الذي كونت منه لنفسها خلاصة.

تلك المرأة السمراء البديعة الجمال التي لها الهيبة والحضور، رغم ابتسامتها التي لا تفارقها ورغم هوايتها لقراءة هوميروس وأفلاطون وكتابتها للتاريخ عن آسيا ومصر، وحبها للصيد والقنص، لم تكن امرأة حاكمة فقط، فلقد حكمت تدمر وملكت الشام وأضافت وتطلعت إلى مصر الغنية، فحكمتها واعترف الشعب المصري بحقوقها الشرعية وحملت سيدة مصر، ولم تقنع بمصر العظيمة، بل شرعت تغزو بلاداً أخرى وتهزم الجيوش حتى اتسعت مساحة ملكها اتساعا عظيما امتدت من شواطئ البسفور إلى النيل، ولولا أورليانوس الحقود الذي توجس من خطرها على إمبراطوريته وحساسية الرومانيين والغربيين ككل من أي نهوض في الشرق لكان وضع الشرق أفضل..

لقد كانت زنوبيا زوجة لأذينة ملك الملوك، وسيد آسيا الرومانية الذي امتدت سلطته على سوريا والشرق الروماني كله مما دعا الفرس دائما لمهاجمته، وفي خلال ذلك كان ينيب زوجته الجميلة الحكيمة التي ببراعتها كانت خير قائد.

قتل أذينة فاعتلت العرش باسم ولدها وهب اللات، وبدأت بتثبيت عرشها وتقوية أركان الدولة التدمرية التي كانت تابعة للحكم الروماني، ولكن زنوبيا تمردت عليه فقام قائدهم هيرقليس بحربها

فهزمته واستقلت بالملك عن الإمبراطور غاليانوس، لقد امتد حكمها من الفرات إلى بحر الروم ومن صحراء العرب إلى آسيا الصغرى، كما قلنا ظلت هذه المرأة الجميلة تحلم بتوسيع حكمها لا تخاف من أورليانوس حتى ضربت النقود باسم ولدها وهب اللات الذي عهدت إليه بحكم مصر، لم يتفق المؤرخون على نهايتها، فمؤرخو الإفرنج قالوا إنها بعد أن قهرت الإمبراطور غاليانوس قاتلها الإمبراطور أورليانوس الذي انتصر عليها بعد أن حاصر مدينتها تدمر وجوع أهلها"[1].

ـ هكذا هم يحبون الحصار وتجويع الشعوب من أول التاريخ حتى يومنا هذا ـ المهم أن الرواية تقول إن أهل تدمر أهلكهم الحصار، فاضطروا إلى التسليم، وقبض عليها وحملت أسيرة إلى تيبور ثم بلغها أن تدمر قد دمرت فاشتدت آلامها وماتت غما!!

هكذا تقول رواية أشاعها بعض الرواة، أما الرواية الأقرب وهي التي ضرب بها المثل: "لأمر ما جدع قصير أنفه" فتقول إنها ظلت في تدمر وحاربت جذيمة الوضاح ملك العراق، وبعد أن انتصرت عليه، احتال ابن أخت هذا الملك واسمه عمرو بن عدي ودخل قصرها، بواسطة قصير الذي جدع أنفه ليحتال عليها، ويمكن خصمها من قتلها بالخداع، ولكن هذه الملكة أبت إلا أن تنهي حياتها بنفسها، فامتصت سما كان في خاتمها وقالت "بيدي لا بيد

(1) أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام صفحة 130 ـ 131 لعمر رضا كحالة.

عمرو" على أي حال، كانت امرأة ليست كأي امرأة، كانت امرأة مدهشة بكل المقاييس، ولأن المقاييس تختلف ما بين الرجل والمرأة شكلا لا موضوعا فإن المواضيع التي تتناول المرأة توضع في مقاييس الرغبات، ولأن الرغبة هي أن تبقى المرأة في الحيز "اللاعقلاني" فهي حيوية فقط في الحيز العاطفي "هكذا وضعوا" والقول الفصل: لو تساوت المعطيات الثقافية التي تميز بين ذكر وأنثى في التعامل فسنجد أنهم يتعاملون بمنطق مزدوج، يشوه ويزيف، ما يجيش في نفس البنت أو في نفس الولد، من رغبات إنسانية لا تتعارض مع جنسه أو تكوينه الإنساني العقلاني. إنهم يقولبون الماء فيصبح ثلجا.

إذن الزياء عقل تهيأ له القفز فوق السياجات الانتقائية فحلق في فضاء الإبداع قبل أن تصطاده بنادق الفكر الجنساني المهيمن!!

لقد أبدعت هذه المرأة، مثل أي قائد شجاع مثقف، حلقت في فضاء الحكمة والشجاعة، لم يمنعها جنسها ولا شكلها الجميل من ممارسة الفروسية واتخاذ القرارات فأبدعت![1].

آسية:

ومن تدمر إلى مصر نرحل سويا يا أيها الرجل من جنوب الأرض لنؤكد، مرة أخرى، أن لها، أعني المرأة، أن تتخذ القرار

(1) أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام لعمر رضا كحاله صفحة: 131. وأعلام النساء زينب العاملي صفحة: 357.